

الأديب المهاجر ابن محرز الوهراني

حياته ومسيرة هجرته

أ. مريم مناع

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

أ.د. أحمد موساوي

المركز الجامعي بالنعامة (الجزائر)

الملخص:

أوردت كتب الأدب والتاريخ نتفا عن حياة الأديب الجزائري "أبو عبد الله بن محرز الوهراني"، وتحدثوا عن اشتهاره بصناعة النثر وخاصة فن الترسل والمقامات والمنامات، غير أنها لم تتحدث عن ميلاده فلا يزال مجهولاً، واهتموا بنسبه ومؤلفاته التي يتضح من خلالها مسار هجرته فكانت القيروان جزءاً من ذلك، كما ذكر في إحدى مقاماته أنه هاجر إلى صقلية ثم إلى مصر فيغداد ولم يرحل إليها إلا بعدما فشلت هجرة التكسب مع الحكام والقضاة، فكانت الشام آخر محطة يقرر فيها قرار الوهراني، وفيها توفي كما ذكرت المصادر والكتب التاريخية .

الكلمات المفتاحية: الترسل، المقامات، المنامات، الهجرة، التكسب.

Abstract:

Literature and history books reported bits about the life of the Algerian writer, "Abou Abdallah Ben Mehrez Elouahrani", and talked about his reputation for prose industry and especially the art of letters writing, Makamas (Arabic prosimetric) and Manamas (dreams stories). But they did not talk about his birth, it is still unknown. They cared about his descent and writings through which his immigration path turns out, and from which Kairouan was part of it. He mentioned in one of his Maqamas that he immigrated to Sicily, to Egypt, then to Baghdad. He did not go to there only after the gain failed with of governors and judges.

توطئة:

كان الناس أمة واحدة لا يفصلهم فاصل ولا يفرق بينهم إلا المناوشات والحروب التي أطفأ نارها الإسلام حين حكم الخلفاء وعززوا شعائر ودعائم الدين وحملوا رسالته.

ولقد عرفت الحياة السياسية للأمة العربية مراحل مختلفة بدأت بالازدهار والحضارة، وانتهت بالفرقة والتشتت والانقسام إلى ممالك ودويلات مما أدى إلى انفصال الدول بعضها عن بعض، فهم كل أناس بإمامهم أو أميرهم أو قائدهم، وتشكلت بذلك ملامح كل دولة، الاجتماعية والسياسية والثقافية، فظهرت تلك السمات وتطبعت بها الأنظمة والنواميس والأعراف والعادات والفنون.

وبما أن الأدب شعره ونثره من أهم الفنون التي اهتم بها العرب وألبسوها ثقافتهم فإن كثيرا من الدارسين والباحثين والنقاد أدخلوه في دائرة الفصل الجغرافي فاصطلحوا على ذلك بما يسمى: << إقليمية الأدب >> رغم الاشتراك اللغوي إلا أن عوامل أخرى أثبتت ذلك كالبيئة وطبائع أصحابها.

وهناك ما وقف حاجزا في طريق الإقليمية في تصنيف بعض الأدباء، خاصة في زمن الدويلات والممالك، إن ذلك الحاجز هو الرحلات التي كانت قائمة دائمة بين المشرق والمغرب إذ أنها جعلت الأدب ينفلت من عقل الإقليمية ويخرج من دائرتها في عصوره الوسطى.

ومن المستحسن أن نطلق على الأدب الهارب من وطنه << أدب مهجري >> لأنه نشأ في بيئة غير بيئته، وإن كان يجمعها الدين واللغة.

ولما كان المقال يختص بالأدب المغربي عامة والجزائري خاصة ويرمي إلى الكشف عن أحد المهاجرين فإنه بات من الضروري ذكر بعض الأدياء المهاجرين من الجزائريين، فمن أمثال هؤلاء الأدياء ومن أهل الفن والإبداع في الكتابة والإنشاء << الشيخ عبد الله محمد بن محرز الوهراني >> فمن هو هذا الأديب؟ وأين توفي؟ وإلى أي بلد كانت وجهته؟ وما هو مسار هجرته؟

1/ ميلاده ونشأته: أوردت الكثير من الكتب الأدبية والتاريخية نتفا عن حياة الأديب الجزائري << أبي عبد الله بن محرز الوهراني >>، وتحدثوا عن اشتهاره بصناعة النثر وخاصة فن الترسل والمقامات، والأدب الهزلي فذكروا أن هذا الأدب ((احترفه أدياء منهم جمال الدين بن محرز الوهراني))¹، غير أن الحديث عن ميلاده لم تذكره كتب الأدب والتاريخ ولم يعثر عليه فلا يزال مجهولا، لأجل ذلك اهتموا بنسبه ومؤلفاته أكثر من اهتمامهم بمولده.

كما أن الأديب ابن محرز الوهراني قد تسمى به أعلام كثيرون، وتشابهت الألقاب على الباحث مما يصعب على بعضهم التفريق بين هذه الشخصيات المتشابهة أنسابها خاصة وإن اتفقتا وتشابهتا في الاسم الأول، أو ضاعت الأنساب كاملة ولم يبق منها سوى اللقب المنسوب إلى بلاده.

ومن الألقاب المتشابهة معه الوهراني الذي هجاه ابن هانئ، وكانت له صلة مع جعفر بن علي، فقد أخلص للعقيدة الفاطمية وفارق من أجلها بلده، فتعرف على المعز لدين الله العبيدي الفاطمي، فامتدحه وقائده جوهر وغالي في مدحهما²، لقد استفاد ابن هانئ من علاقته بجعفر وأخيه يحيي أيما استفادة مما وقاه المكاييد والشورور التي خطط لها خصومه منهم الوهراني كاتب الأمير إذ هجاه ابن هانئ في قصيدة عنونت في ديوانه بـ"الأيام أعوان الوغد السخيف" قائلا³:

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف
إن ذل العزيرز أفضع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف
ليس غير الهيجاء والضربة الأخر دود فيها والطعنة الإخطف

فالعودة إلى سيرة ابن هانئ والأمير جعفر بن علي يجعل أمر معرفة شخصية الوهراني الذي هجاه يبسر عملية التفريق بين الشخصيتين، إذ نضع في الاحتمال القرب المكاني بين صقلية التي هاجر إليها الوهراني الأديب وبين الأندلس، لكن الفرق الزمني يبسر عملية التفريق فقد عاش ابن هانئ في القرن الرابع، أما الأديب ابن محرز الوهراني فعاش في القرن السادس للهجرة في الفترة الممتدة من سنة 569هـ إلى سنة 650هـ⁴، لذلك وجب التدقيق في النسب تحريا للصحة وعدم الخلط.

كما يوصف ابن محرز الوهراني من جهة فنه ((أنه أديب صناعته الإنشاء كان بارعا في الهزل والسخرية، نشأ بوهران ورحل إلى المشرق فمر بصقلية))⁵ ويذكر الأغا بن عودة المزارعي عنه أنه ((أبو عبد الله محمد الوهراني الملقب بركن الدين صاحب الرسالة المشهورة على لسان بغلته للأمير بمصر عز الدين موسك المذكورة في دليل الحيران وعقد الأجياد، وغيرها دخل مصر في حدود السبعين من القرن السادس.....))⁶ وقد ثبتت ترجمة الأديب ابن محرز الوهراني في كتب كثيرة، واهتم بذلك الكثير من المؤرخين القدامى، وأشهر من ترجم له ابن خلكان في كتابه << وفيات الأعيان >>، وابن فضل الله العمري في كتابه << مسالك الأبصار >> والصفدي في << الوافي بالوفيات >> وابن قاضي شبهة في << الأعلام >> وكذا خير الدين الزركلي في << الأعلام >>، وابن العماد الحنبلي في كتابه << شذرات الذهب >> وفي كثير من المصادر التي أثبتت نسبه، وما كتبه من مؤلفات.

أما في العصر الحديث فقد ظل الوهراني مجهولا، غير ((أن الفضل العظيم في الكشف عنه يعود إلى العلامة محمد كرد علي الذي عرف به في "المقتبس"، ونشر مقتطفات من آثاره...))⁷ كما كتب عنه فريد وجدي في دائرة

معارف القرن العشرين إلا أن أغلب هؤلاء المترجمين له والمتحدثين عن حياته، إنما كان حديثهم اقتباسا جليا مما قاله ابن خلكان في كتابه السالف ذكره، حيث ذكر عن حياته وأدبه ما جعل الباحثين يكرسون جهودهم في البحث والتحقيق، إذ قال عنه: ((..أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين وقيل جمال الدين: أحد الفضلاء الظرفاء قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين رحمه الله))⁸.

وقد أكد أكثر المترجمين له على نشأته بوهران فهو ينسب إليها، حيث يقول ابن خلكان عن ذلك النسب: ((..والوهراني هذه نسبة إلى وهران وهي مدينة كبيرة في أرض القيروان بينها وبين تلمسان مسافة يومين وهي على ساحل بحر الشام))⁹، والتصنيف الإقليمي للآداب والأدباء يحتم التعريف بهذه المدينة، وضبط موقعا لها إذ هي ((مدينة على البر الأعظم بينها وبين تلمسان سرى ليلة..وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر، وأكثر أهلها تجارا))¹⁰، كذلك توصف أنها ((مدينة متحضرة من مساجد ومدارس وملاجئ))¹¹ وقد كتب عن هذه المدينة الجزائرية أشهر الرحالة من بينهم الإدريسي في وصفه لشمال إفريقيا والمغرب، وكذا البكري في رحلته وغيرهم.

إن الموقع الجغرافي لمدينة وهران، ومجاورتها لمدينة تلمسان أمر في غاية التأثير على الجانب العلمي من حياة العلماء، فهو مكرس بلا ريب لظهور أدباء وفقهاء، وقد يكون ابن محرز الوهراني متأثر ببعض فقهاء تلمسان وعلمائها، حتى وإن قلت مدة بقائه ببلده فهذا الجانب يتطلب بحثا وتقنيا في كتب الدين والتاريخ، إلا أن طبيعة أدبه وتعاييره المتضمنة لأساليب القرآن الكريم والسنة النبوية وكذا اشتغاله بالخطابة يكشف عن التأثير بعلماء بلده.

إن نسب الوهراني لم يقتصر على مدينة وهران فحسب، بل تعداها إلى القطر المغربي بكامله، وذلك أمر كان شائعا في زمنه، إذ لم يعرف إبانه هذا الفصل الجغرافي الحالي للدول.

ويظهر نسبة للقطر المغربي في بعض ما كتبه عن نفسه فغالبا ما يضيف إلى نسبه الوهراني كلمة ((المغربي))¹² فهو -وإن رحل إلى المشرق بجسده- لم يتخل عن نسبه إلى مدينته، وقطره المغربي حيث يبدأ بها ما كتبه من مقامات ورسائل وغيره وهي نسبة تثبت الحنين إلى بلده الذي هاجر منه، وكثيرا من الأدباء والمؤرخون من حددوا نسب أولئك المهاجرين فتارة ينسب إلى مسقط رأسه وأخرى إلى البيعة التي هاجر إليها وعاش فيها وقد قال ابن حزم عن ذلك: ((إن جميع المؤرخين من أيمتنا السالفين متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته الذي استقر به ولم يخرج عنه رحىلا إلى أن مات [.....] فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعد به))¹³ ومنه فإن ابن حزم أمر النسبة وفضل واختار النسبة إلى مكان الهجرة، لكنه لم يضع في حسابه أولئك الذين يهاجرون إلى عدة دول فذلك ما يعيق الدارسين والمؤرخين إلى معرفة نسب الأدباء والعلماء المهاجرين كالوهراني الذي ما يقيم في مكان ويحل به إلا ويغادره بحثا عن الأفضل والأهنا عيشا، وستعرض تفصيلا إلى مسار هجرته في العنصر اللاحق، غير أننا نرى أن الوهراني قد التصق نسبه به فلا مناص من نسبه إلى البلد الذي هاجر إليه فقد يعود إلى بلده فلا يجد نفسه غريبا فيه إن لم تسند إليه النسبة إلى بلد آخر ليس بلده.

2/ مسار هجرته:

أ/ إشكالية المصطلح: "رحلة أم هجرة"؟

عرف المغرب العربي في العهود الأولى ما أطلقوا عليه رحلات بين المغرب والمشرق فمنهم من اتجه من الجزائر إلى المغرب الأقصى، ومنهم من ولى وجهته إلى القيروان بتونس وآخرون إلى صقلية والأندلس وأكثرهم إلى المشرق، وراح المؤرخون والكتّاب يعدون أسباب الرحلة عدا، فاقترص بعضهم على سبب أوحده وهو طلب العلم أو

الحج إلى بيت الله الحرام غاضين الطرف عن الجانب السياسي خوفا من الغور في هذا المجال الذي شهد إبانها تمزقا سياسيا شديدا.

لقد انتقل الوهراني من المغرب إلى المشرق، فهل يصح أن نطلق على هذا الانتقال رحلة؟ أم أنه هجرة؟ وما

الفرق بينهما؟

إن الرحلة أو الرحلة "بضم الراء" هي الانتقال، ويطلق عليه الترحال¹⁴، أما الهجرة أو الهجرة بالضم فالخروج من أرض إلى أرض، فالمهاجر كل محل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هاجر قومه¹⁵، ومن هنا يبدو أن الرحلة ينطلق صاحبها للمتعة والاكتشاف والتطلع والتجارة، فأشهر الرحلات العربية ((رحلة الشتاء والصيف)) (و أول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير،... فكان هاشم يؤلف إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، وكانت قريش يختلفون إلى الأمصار، والرحلة بالكسر اسم مصدر بمعنى الارتحال والانتقال))¹⁶، وتكتسب هذه الرحلة شهرتها من القرآن الكريم حيث ذكرت في سورة قريش المكية وذلك من قوله تعالى: ﴿لِيَلْفَ قَرِيْشٍ لِّيَلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصِّيفِ...﴾¹⁷، أما من الرحلات الأخرى كرحلات ابن بطوطة والتاجر سليمان السيرافي وغيرهم¹⁸، وابن بطوطة قد عرف برحلته الشهيرة وهو مغربي الأصل ولد بطنجة سنة 705 للهجرة وغادرها إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج سنة 725 للهجرة كما اتصل بعدها بالبلط المريني بعدما صال وجال إفريقية وكتب رحلاته واصفا ما شاهده من مناظر وأماكن ورحلات¹⁹ فمن الأهداف المذكورة للرحلة السعي إلى العلم والمعرفة وأداء فريضة الحج أو السفر في تجارة، غير أن الهجرة هروب من واقع أو وضع غير محتمل أو هروب لنشر فكر، أو طلب المعاش فهي تبتعد في مفهومها عن الاستمتاع بمقارنة بناظرتها، ومن أشهر الهجرات في الإسلام، الهجرتان الشهيرتان من مكة إلى الحبشة والهجرة من مكة إلى المدينة، فالهجرة كانت في رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة هربا من الاضطهاد والعذاب الأليم الذي اشنت بهم²⁰

ومن هذا القول يظهر أن من أسباب الهجرة الاضطهاد والتخلص من واقع أليم مرير، أما الهجرة التي تلتها من مكة إلى المدينة فكانت هي الأخرى نهاية اضطهاد ومؤامرات من قريش، فمن هنا نستخلص أن الاختلاف الشاسع بين الرحلة والهجرة يجعل حركة الوهراني لا تعد رحلة، فالكثير من أهل المغرب ((كانت عيونهم متجهة إلى المشرق في اقتباس حضارته ومدنيته، وفي تغذية عقولهم بتقافته العلمية الغنية...))²¹، فهي هجرة وهروب من الواقع السياسي الذي آل إليه المغرب الأوسط آنذاك، وهذه الهجرة أخذت وجهات متعددة بين عدة دول إسلامية.

ب/ الأماكن التي هاجر إليها:

1/ الهجرة إلى القيروان: من خلال دراسة ما كتبه الوهراني اتضح أن القيروان كانت جزءا من مسار هجرته، وقد ذكر الوهراني ذلك في رسالة بعثها إلى أمه قائلا: ((...دخلت القيروان بكرة، واشتهيت أخذ الولاية ضحوة، وأنزوج بنت السلطان عشية، فلم تساعدني المقادير))²²، فالقيروان مركز علمي بارز في المغرب العربي وفي إفريقيا عامة لا يقل عن المراكز الأخرى إذ يأتيه طلبة العلم من كل الجهات ومن جميع المدن لما ضمه من كبار العلماء، فمنذ ((القرن الثاني للهجرة تتابعت قوافل طلبة العلم تحدها العزيمة القوية، وحب الاطلاع والرغبة في تمتين أوامر اللحمه وتعزيز الإسلام واللغة العربية...)). وقد أغنى هؤلاء العلماء تلاميذ إفريقيا عن الرحلة إلى المشرق وكفوهم عناء الأسفار (والمشاق)²³ لكن ابن محرز الوهراني لم يكن من ذوي العزيمة القوية والنفوس التواقفة إلى العلم.

03/ الهجرة إلى مصر : سنة 570 هـ و زواج ابنته بها : هاجر الوهراني من الجزائر إلى مصر بعد أن مرّ بالقيروان وصقلية، ((فقد عاش فترة الصراع على الحكم في الغرب الإسلامي كله فشهد سقوط الدولة المرابطية على أيدي الدولة الموحدية، وقد استغل تجربته المرة في الجزائر فكريا وأدبيا))³⁰ فظهرت مرارتها واضحة في أعماله الأدبية و لا بدّ من ذكر بعض ما حدث سياسيا فأثر على التجربة الوهرانية . فلم تلبث هذه الدولة أن وقعت في صراعات مع زعيم الموحدين عبد المؤمن الموحي، فاننصر عبد المؤمن بعدما مهد له ابن تومرت الطريق الذي دعا إلى قيام الدولة مسميا أتباعه الموحدين منتحلا نسبا يدعم به صفته المهدي شعارا لإمامته الدينية ورياسته السياسية، فبايعه أصحابه العشرة³¹ وهذا الصراع و التنازع على الحكم تتحكم فيه تركيبة مجتمع شمال إفريقيا المعروفة بحمية قبائلها كقبيلة " زنانة " و صنهاجة " و " كتامة ". ففي هذه الفترة دخل الوهراني مصر حيث كان دخوله إلى مصر في حدود السبعين من القرن السادس³².

أ/ الحالة الاجتماعية للكاتب في مصر : من الأرجح و حسب ما تبيّن الآثار الأدبية للوهراني -و إن جاز أن نعدّها وثيقة تاريخية تبرز لنا جانبا من سيرته- أنه لحدّ الآن لم نسمع بعض التفاصيل المهمة عن حياته بمصر.

فمن خلال القراءة المتأنية لبعض المقامات والرسائل اتضح أنّ الكاتب هاجر مع عائلته وأهله فلم يكن أعزبا، إذ هو القائل: "... هاجرت الى الشام بأهلي (...)"³³ ، ومما تظهره لنا رسالته أنه كان لديه ابنة فقد صرح بذلك في رسالته إلى البدر صاحب ضياء الدين ابن الشهرزوري يبلغه فيها عن أخباره وأخبار أهل مصر فقال : ((... قد شرع يخبركم بأخبار ديار مصر جميعها وهو شيء لم يسأل عنه ولا احتيج إليه فيه لكن الفضولي يتلذذ بذكر الفضول مثل ما يتلذذ المصافع بالصفاع (...))³⁴ وضمن هذه الأخبار يورد أخبار عائلته حيث يقول : ((... و أما أخبار الوهراني فهو بحمد الله في عافية هو ومن عنده، وكان قد زوج ابنته في رأس هذه السنة بشاب من أبناء المصريين ابن أخت زوجة القطب قاضي قلوب (...))³⁵ ، كما أنه أخبر أن الزوج مرض مرضا شديدا ويؤكد الوهراني في الرسالة ذاتها أنّ اسم زوج ابنته هو أبو المجد بن أبي الحكم .

ربّما كان ذلك في سنة أربع و سبعين وخمسائة وهي السنة التي ولّى فيها القاضي صدر الدين الأحباس حيث يتبيّن ذلك التاريخ في قوله : ((... ولّى القاضي صدر الدين الأحباس في أول ذي الحجة من سنة أربع وسبعين وخمسائة (...))³⁶ و تعد هذه الرسالة وثيقة تاريخية وسيرة ذاتية للكاتب، ومما يجعل الباحث يرجح صحّة معلوماتها ما ذكر فيها من أحداث تاريخية وقعت في مصر في تلك الفترة و سردها الوهراني في رسالته منها :

- احتراق النيل .
- صرف الحبشيين النيل عن مجاري ديار مصر .
- غارات سيف الدين على بلاد العدو .
- تولية القاضي صدر الدين الأحباس في أول ذي الحجة من سنة 574 هـ .

4/ الهجرة إلى بغداد و انتظاره الحج بها: تعدّ بغداد حاضرة العلم والعلماء، والأدب و الأدباء وهي كما عرفت مدينة السلام ، و قد سميت مدينة السلام لأنّ دجلة كان يقال لها وادي السلام فقيل : لبغداد مدينة السلام³⁷ .

وهي مدينة ذات مكانة عظيمة إذ يقول عنها الحميري في كتابة الروض المعطار في أخبار الأقطار : ((... و قال أحمد بن أبي يعقوب : بغداد وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ولا في مغاربها سعة وجلالة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء سكنها أهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وأثرها جميع أهل الأفاق على أوطانهم))³⁸ ، إنّ الصفات التي ذكرها الحميري وشهرة بغداد بهذا المقام الكريم، تجعلنا نكاد نجزم أن الوهراني على علم بها ولم يخترها ويفضلها عن المدن الأخرى، ولم يرحل إليها إلا بعد أن ترك القيروان وصقلية ومصر و جرب أهلها وحكامها وقضاتها فلما فشلت هجرة التكبّ، تحول مساره من مصر

إلى بغداد إلى هجرة أراد منها الوهراني الراحة والاستئناس، فلم يظهر لنا تقربه إلى الحكام فيها وقد قصدها لسبب اختلف عن الأسباب الأولى ، فقد أراد أن ينهي مسار هجرته بحجة، إذ يقول حين دخل بغداد : ((قال الوهراني لمّا تعذرت مآربي واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي على غاربي فما مررت بأمرير إلا حطت ساحته واستمطرت راحته، ولا بوزير إلا قرعت بابه و طلبت ثوابه، ولا بقاض إلا أخذت سيبه وأفرغت جيبه، فتقلبت بي الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار حتى قربت من العراق، وقد سئمت من الفراق، فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام فدخلتها بعد مقاساة الضرر مكابدة العيش المرّ [...] و جلست أنتظر أيام الحج))³⁹

تعدّ هذه العبارات -من إحدى مقامات الوهراني وهي المقامة البغدادية - دليلاً على أنه في نهاية هجرته نوى أن يحج إلى بيت الله الحرام رغم أن نية خروجه من بلده لم تكن كذلك، فقد دعم هذه النية الطيبة بمقوماته التي يحملها والتي تظهر فيما تضمنه أدبه من استعمال مكثف للآيات القرآنية والأحاديث النبوية و معرفته بعلوم الشريعة ، فليس من الغريب أن تكون آخر محطة في مسار هجرته الحج إلى بيت الله الحرام ، و إن لم نعثر في الكتب المتناولة سيرته على ذلك ، فقد انطلق الحديث عن هذا الركن الخامس من نية نواها الوهراني وهي ما عهدناه عند أسلافه وأقرانه من المغاربة الراحلين إلى المشرق، حيث أقاموا أغراضاً في أعمالهم الأدبية وإبداعاتهم تتضمن الحنين إلى الحج والتشوق إلى المدينة المنورة و البيت الحرام .

الشوق إلى بيت الله الحرام عند شعراء وعلماء الجزائر وآخرون: إن الشوق إلى هذا المكان الطاهر ظهر عند العلماء والشعراء الجزائريين وغيرهم ممن جاؤوهم في المغرب والأندلس، فرحلوا إلى المشرق طالبين للعلم ، وآمين البيت الحرام، فمن أولئك نذكر:

1- أحمد التيفاشي البوني: وهو من تيفاش بالقرب من سوق أهراس كان أبوه في العهد الموحد قاضياً في مكانة، أما عمه فقد تقرب من الخليفة الموحد عبد المؤمن بن علي بقصيدة عصماء فكافأه بألف دينار .

لقد قصد الديار المصرية وهناك وجد بين الأساتذة الذين تلقى عنهم العلم وتأثر بهم من أمثال البغدادي المعروف بابن اللباد⁴⁰

2- أبو العباس التيفاشي: هو أبو العباس أحمد بن يوسف بن أبي القيس التيفاشي، ويلقب بشرف الدين وهو من مواليد قفصة . خلال 580 للهجرة التي توافق 1184 للميلاد، ولعل أباه قد حول من مكانه إلى منصب القضاة في قفصة، أو أسندت له مهمة أخرى مما جعل الإقامة تستقر هناك⁴¹

3- الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني(500هـ) (1100م-1170م): الذي ذكر شوقه وأبعد كل ما يذكره بالدنيا رغم أنه قصيدته الحجازية تبتدى بالغزل ثم عدل عن ذلك مباشرة إلى ذكر الحج والحجيج إذ يقول:

عذيري عذيري من ذوات المعاجر ذوات العيون النحل بيض المحاجر
ذوات الشفاه اللعس واللما غرائر الصنع سود الغدائر

ثم يقول:

فدع عنك ربات الحجال وذكرها وعد إلى ذكر الحجيج المسافر

خرجنا نؤم الشرق من دير ورجلان بفتيان صدق من وجوه العشائر

إلى أن يقول:

ومغراوة عليا زناتة كلها وغيرهم من خير أهل الجزائر
لدى الكعبة البيت الحرام وجوههم على قلص خوص العيون ضوامر⁴²

ويظهر من تاريخ ميلاد الورجلاني أنه من أولئك الذين عاصروا الوهراني، بل هم من أقرانه بالنظر إلى سنة الوفاة، فكلاهما عاشا في القرن السادس للهجرة، إلا أن مكانهما اختلف فالوهراني أكثر حركة وتتبعاً للولادة والقادة والوزراء.

وما جعل الورجلاني يعبر بشعره عن شوقه وشدة حبه إلى هذا المكان الطاهر إلا قوة إيمانه بالله وتعلقه بكتابه الكريم، إذ ألف تفسيراً للقرآن الكريم يضم أجزاء عدة.

4- الرحالة بن جبير لم تذكر الكتب علاقة الوهراني بهذا الرحالة لكن رحلته من الأندلس إلى دمشق اتخذت مساراً مشابهاً إن لم نقل مطابقاً لحركة الوهراني، وكان من معاصريه حيث ولد سنة 539هـ أو 540هـ في بلنسية بالأندلس.... ثم تحول إلى مصر وأقام بالإسكندرية يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه.... عاصر في دمشق أبو سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عسرون.... وسمع عليه عماد الدين الأصفهاني⁴³ وهذين الشخصين ابن أبي عسرون والأصفهاني هما من معاصري الوهراني حيث وظفه في مقامته المسجدية. التي تتضمن رسالة رمزية بعثها ملك الجوامع بـجيرون إذ قال:

((بسم الله الرحمن الرحيم، من ملك الجوامع بجيرون إلى سعد الدين بن أبي عسرون...))⁴⁴
لقد أظهر ابن جبير كغيره الشوق إلى الأراضي المباركة. وقال في إحدى قصائده عن المدينة:

جرى ذكر طيبة ما بيننا فلا قلب في الركب إلا وطارا
ولو كنت لا أستطيع السبيل نظرت ولو لم أصادف مطارا

وأشدد أول رحلته:

طال شوقي إلى بقاع ثلاث لا يشد الرحال إلا إليها
إن للنفس في سماء المعالي طائرا لا يحوم إلا عليها⁴⁵

ومقارنة بمن سبقه واستناداً إلى مسار هجرته المتعرج الطويل يظهر أن الوهراني تأخر عن هذه الفريضة .

وبيّن الوهراني في انتظاره الحج في بغداد أنه بقي فيها واتخذها وطناً له، فهي محل الخلافة الإسلامية، وكانت أبرز المدن المقصودة في أول عهود الجزائر بالرحلة، ورغم ما وجده الوهراني في بغداد من أفاضل وجالسهم إلا أن طبعه التواق إلى مجتمع أفضل وعيشة هنا لا يهدأ ولا يثبت على حال، و نفسه التي لا تألف أكثر من تجالس مبالغة إلى السخرية والذم والهزاء جعلته سرعان ما ينفر من وضعه ومجتمعه، و يقرر الرحلة إلى دمشق ولم يعرف أكانت هجرته إلى دمشق بعد قضاء فريضة الحج، أم أن صبره على المكوث نفذ فهاجر قبل أن يحج؟ ...

5- الهجرة إلى الشام ووفاته بها : تعدّ الشام آخر محطة يقرّ فيها قرار الوهراني، ويستريح خاطره، ومن المعلوم عند أهل الجغرافيا أنها ((خمسة أقسام ، أولهما فلسطين وثانيها طبرية وثالثها الغوطة و أعظم مدنها دمشق و رابعها حلب ، فأنطاكية))⁴⁶ و في ثالث الأقسام استقر الوهراني في دمشق بالغوطة .

إن استقرار الوهراني في دمشق في آخر عمره جعله يميل إلى الاهتمام بالخطابة الدينية، وقد حدّد المزارعي السنة التي التحق فيها الوهراني بدمشق وذلك في عام سبعين وخمسائة للهجرة ، سنة أربع و سبعين ومئة وألف للميلاد ، وعين إماماً في مسجد داريا بضواحيها و بقي بها⁴⁷ وقد توفي بها حيث أثبت ابن خلكان في حديثه عن الوهراني وفاته في دمشق حين قائلًا : ((... و أقام بدمشق زماناً وتولّى الخطابة بداريا وهي قرية على باب دمشق ، في الغوطة و توفي سنة خمس و سبعين وخمسئة بداريا رحمه الله تعالى، ودفن على باب تربة أبي سليمان الداراني، نقلت من خط القاضي الفاضل وردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني (...))⁴⁸ ، وقد اتفقت جل الكتب التي أرخت لسيرته و ترجمت له أنه توفي في السنة التي ذكرها ابن خلكان من القرن السادس الهجري، وما

يظهر للباحث أنّ مدة بقاءه في المشرق لم تتجاوز الأربع سنوات من 570 هـ إلى 575 هـ وهي مدة محدّدة قصيرة من حياته ويحكمها في ذلك كثرة ترحاله وزيارته لمدن وبلدان مختلفة، وعدم قراره في أية منها، وكذا هجرته في سن متأخر، وهذا الاستنباط الزمني يخضعها لما كتب من رسائل ومقامات سبق الحديث عنها آنفاً .

وما نقل خبر وفاته من خط القاضي الفاضل إلّا دليل على شهرة هذا الرجل بين أدياء عصره وكتاب النثر والترسل، وما يظهر ذلك أنّ خبر الوفاة شاع من دمشق إلى مصر وثبت في النصف الثاني من القرن السادس وشاع بين الناس، ولم يكن ليشتيع ويكتب عنه لو لم يكن الأديب ذا شهرة واسعة لما يملكه من قدرة إبداعية في صناعته النثرية التي أثّرت في سامعيه، وظهرت فيما تركه من مؤلّفات مطبوعة أو مخطوطة .

ومنه فإنّ هجرة الوهراني إلى المشرق والتطرق إليها يجعلنا نستنبط مما كتبه الباحثون والمؤرخون وفي سياق الحديث عن قدمه لهذه الدول ونقارن بين بقاءه فيها، وما ذكره الزيّاري في كتابه دليل الحيران وأنيس السهران، من أن الوهراني دخل مصر في حدود السبعين ونربطه مع التواريخ السياسية التي ذكرها الوهراني في حديثه عن أخبار مصر، فهذه الأحداث ذات الوظيفة التوثيقية ورد بعضها باليوم والشهر والسنة، منها تولية صدر الدين الأحماس سنة أربع وسبعين وخمسئة للهجرة وغيرها...، ومنه فإنّ مدة بقاء الوهراني في مصر دامت أربع سنوات فهي أطول من مكوثه في بغداد ودمشق التي لم تصل مدة بقاءه فيها إلى عام كامل لأنّ تاريخ وفاته كان سنة خمس وسبعين وخمسئة، والدليل الذي يقودنا إلى ذلك ما حدث للوهراني في مصر و دل على قراره فيها زماناً ، كتزويجه ابنته، وبعض الأحداث التاريخية المذكورة آنفاً حتى كتاباته في مصر تفوق ما كتبه في بغداد ودمشق لتأثّر بصنّاع النثر و الأدب هناك، ودون الأخذ في الاعتبار ما يكون قد تعرّض منها للضياع والاحتراق لكن طبيعة أدب الوهراني تكشف عن ميله للنزعات التي ظهرت في أدبه المكتوب في مصر .

الهوامش والإحالات:

- ¹ -- محمد الطمار ، الروابط الثقافية بين الجزائر وال خارج، ص112
- ² - ينظر ديوان ابن هاني، دار بيروت للطباعة، بيروت لبنان، ط1، 1985، ص 6
- ³ - المرجع السابق، ص: 214
- ⁴ - ينظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الأول ، دار المعارف، مصر، ط1، 1969، ص142.
- ⁵ - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض، بيروت، ط2، 1982، ص350.
- ⁶ - الأغا بن عودة المزاوي ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، دار البصائر ، الجزائر، ط1، 2009م، ص:95.
- ⁷ - سعيدة رمضان، ابن محرز الوهراني حياته وآثاره، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر ، ع 02 ، 1970، ص 67 و 68.
- ⁸ - إ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، مج 04 ، سيرة 656 ، ص 385.
- ⁹ - إسماعيل العربي، المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1 ، 1984، ص 141 و 142
- ¹⁰ - الحسن الفاسي، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ج2 ، ط2 ، دت، ص 30.
- ¹¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹² - ينظر: ركن الدين محمد بن محرز الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، منشورات الجمل ،كولونيا، ألمانيا ، ط1 ، 1998، ص30
- ¹³ - ابن حزم (.....)محمد بن أحمد بن شقرون، مظاهر الصقافة المغربية ، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني دار الثقافة ، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص 57
- ¹⁴ - ابن منظور، لسان العرب، الدار المتوسطة،الجمهورية التونسية، ط1، ج2، 2005، ص1476
- ¹⁵ - المرجع نفسه، ص4078.
- ¹⁶ - الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، ج6، 2005، ص 2430

- 17 - القرآن الكريم، سورة قريش، الآيات 1 و 2 و 3.
- 18 - الصاوي، المرجع السابق، الصفحة 2430.
- 19 - ينظر: محمد بن أحمد بن شقرون، المرجع السابق، الصفحة 72 و 73.
- 20 - ينظر: صفي الدين المبارك، الرحيق المختوم، دار ابن حزم، لبنان، بيروت، ط1، 2006، ص 88، 89 و 18.
- 21 - محمد صالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بنونس 1900 و 1962 الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983 ص 17 و 18.
- 22 - الوهراني، المصدر السابق، ص 207.
- 23 - محمد صالح الجابري، المرجع السابق ص 17 و 18.
- 24 - الوهراني، المصدر السابق، ص 97.
- 25 - الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984 ص 366.
- 26 - المرجع السابق، الصفحة 366 و 367.
- 27 - ديوان ابن حمديس الصقلي.
- 28 - الوهراني، المصدر السابق، الصفحة 219.
- 29 - المصدر نفسه، الصفحة 12.
- 30 - عمر بن قينة، فن المقامة في الأدب العربي، دار المعرفة، الجزائر، ط1، 2002، ص 15.
- 31 - ينظر: مبارك بن محمد الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، د ط، د ت، ص 282.
- 32 - محمد بن يوسف الزبيري، دليل الحيران وأئيس السهران في أخبار مدينة وهران، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007، ص 35.
- 33 - الوهراني، المصدر السابق، ص 97.
- 34 - المصدر نفسه، الصفحة 185 و 186.
- 35 - المصدر نفسه، الصفحة 194 و 195.
- 36 - المصدر نفسه، الصفحة 190.
- 37 - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص 110.
- 38 - المرجع نفسه، ص 111.
- 39 - الوهراني، المصدر السابق، الصفحة 10.
- 40 - ينظر: حفناوي بلعلي، دليل الأئيس والجليسي في رجالات وشهيرات موطن العناب والأحباب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر، 2009، ص 13 و 14.
- 41 - حفناوي بلعلي، المصدر السابق، الصفحة 13.
- 42 - الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي الورجلاني، رحلة الورجلاني، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007، ص 41 و 42 و 43.
- 43 - سيف الدين الكاتب، الرحالة محمد بن جبير، عز الدين للطباعة، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص 21، 26، 28.
- 44 - الوهراني، المصدر السابق، الصفحة 67.
- 45 - سيف الدين الكاتب، المصدر نفسه، الصفحة 28.
- 46 - الحميري، المرجع السابق، الصفحة 335.
- 47 - المزاري، المرجع السابق، الصفحة 96.
- 48 - ابن خلكان المرجع السابق، الصفحة 385.